شعر الأطفال عند سليمان العيسى

أ/بوعجاجة سامية
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر، بسكرة

"بالشمس، والهواء، والماء، تتفتح أزهارالربيع، وبالموسيقي، والحركـــة الغنـــاء، يتفتح الأطفال على كل جميل ورائع دعوا الطفل يغني. بل غنوا معه ... أيها الكبـــار .دعوه يتفتح ...إن الكلمة الحلوة الجميلة التي نضعها على شفتيه هي أثمن هدية نقدمها له .

لكي يحب الأطفال لغتهم، لكي يحبوا وطنهم ،لكي يحبــوا النـــاس، والزهـــر والربيع والحياة، علموهم الأناشيد الحلوة، أكتبوا لهم شعرا جميلا ،شعرا حقيقيا ."(1)

هذا النص هو بعض مما جاء من مقدمة الشاعر العربـــي الســـوري الكبيـــر سليمان العيسى لديوانه "ديوان الأطفال"والشاعر يدعو فيها صـــراحة إلـــي الإهتمـــام بالطفل وعالمه من خلال الكتابة والإبداع .

والعيسى هذا الشاعر الذي أحب الصغار، وعايش عالمهم، وعشق الـــورود والعصافير، وأصوات الجداول والينابيع، وأفياء الحقول والبساتين ....

كتب للكبار فلما أعياه عالمهم المملوء بالشرور والمظالم، المعبـــئ بالإقتتـــال والتصارع .. هرب بذاته المرهفة وحمل أنفاسه الرقيقة ليلقيها بين يدي الصغار، فهم الأمل ومنهم سيطلع شمس هذه الأمة الساطع، وهم المستقبل وفجر الأمة الثـــــاقب :

أيهـــــا الآتـــــون كالأفـــراح
من زوايا الأرض ..كالأفـــراح
أيهـــــــــا الأطفـــــــــــــال

وحدكـــــــــم في البــــــال
قــــد تألمنـــــا طويـــــــلا
وأنتظـــــرناكــــم طويلا
ادفعوا جيلا على الأرض فجيلا
يتحـــــــــدي المستحيــــلا
ادفعوا ماء على صحرائنا ، ظلا ظليلا " (2)

إن هؤلاء الأطفال ليسوا فقط الجيل الموعود، الذي معه سيتغير المشهد وتتبـدل الأحوال، ولكنهم من يملك إرادة الفعل والقدرة على المجابهــة، والعزيمــة الصــلبة والروح الوثابــــــة.

أطفالا يغدون بعد أيام رجالا يعيدون للأمة فرحت ويحيون أمجادها .

ولعل شاعرا من شعراء العربية لم تسكنه الطفولة وأحاسيسها الدافئة البريئــة ولم يسكن عالمها بروحه الشاعرة الهادئة كشاعرنا سليمان العيسى، لقد قالها مــرارا وتكرارا إنه لايجد موضوعا أجمل ولا أغنى ولا أهــم مــن موضـــوع الأطفــال : "يسألونني كثيرا : لماذا تكتب للأطفال ؟ وأجيب :ولمن تريدون ان أكتب ؟

وهل هناك موضوع أجمل، وأغنى، وأهم ؟ وهل شبع أدباؤنا وشعراؤنا مـــن الكتابة للصغار، حتى أسكت أنا وأطوي هذه الرغبة بين الضلوع ؟

أدبنا العربي – أمد الله عمره – محروم من شعر الأطفال .قلت هذا أكثر من مرة، وشعراؤنا، حفظهم الله مازالوا يخجلون من وضع بسمة الملائكة علـــى شــفتي طفل، أعني من كتابة نشيد للصغار "(3)

شعرنا العربي وأدبنا ككل لا ينظر للطفولة واهتماماتها إلا بخجــل ،كمـــا أن الكتابة للطفل لاتشغل إلا حيزا ضئيلا من مساحة الإبداع العربي لذلك أخــذ الشـــاعر على عاتقه كتابة النشيد والغناء للطفل حتى يملئ هذا الراغ وهذا ما سنلاحظه فيمـــا يأتي ، ولكن قبل الحديث عن شعر الطفل عند الشاعر ، بودنا الوقوف بالترجمة لهذه الشخصية الأدبية البارزة.

التعريف بالشاعر : سليمان العيسى من مواليد 1921 بقرية النعيريـــة مـــن القطر العربي السوري، وفي بيته الصغير تربى وتلقى مبادئ الكتابة والقـــراءة كمـــا حفظ القرآن على يد معلمه الأول والده المرحوم الشيخ أحمد العيسى الذي كـــان مـــن

كتاب القريـــــــــة " ([4])

نظم الشعر في سن مبكرة، وتفتحت نفسه عن شاعرية مرهفــة الأحاســيس، مليئة بالمشاركة الوجدانية والعاطفية لهموم وآلام أمته التــي كانــت تــرزح تحــت الاحتلال، وتكابد الظلم والطغيان، فشق طريق النضال والدفاع عــن قضــايا الأمــة العربية، فشارك بقصائده القومية في المظاهرات، كما ذاق مرارة التشــرد وعــرف الكفاح في سبيل تحرر ووحدة الأمة العربية ([5])

سجن مرات عديدة بسبب مواقفه السياسية، ووقوفه الــى جانــب الحركــات التحررية (الجزائرية، المغرب، تونس، فلسطين، سورية .....) كما نشط في مجــال الكتابة الأدبية وخاصة الشعرية، وعمل في التدريس والصحافة .

أصدر الشاعر دواوين شعرية كثيرة للكبار وللصغار ...

فللأطفال كتب لهم شعرا وقصصا وحكايات ومسرحيات غنائيــة وتمثيليــات كثيرة ، منها مثلا: مجموعة أناشيد بعنوان ((غنوا يا أطفال))، ((شــعراؤنا يقــدمون أنفسهم للأطفال))، ((أحكي لكم طفولتي ياصغار))، ((ديوان الأطفال)) ...

ولا يزال الشاعر حيا يبدع ويغني للطفولـــــــة .

ثانيــــــــا :دواعي الكتابة للأطفال :

اتجه الشاعر منذ عقود للطفولة، وصارت له هاجسا وهما، ونبضا وفنا فكتب النشيد والقصة والحكاية والتمثيلية الموجهة للأطفال ....

وربما يرجع السبب في توجه الشاعر نحو هذا العالم البريء ، واستغراقه في عوالم الصغار الحالمة يعود الى تلك النكسة التاريخية التي تعرضت لها الأمة العربية في حزيران سنة 1967 وهزيمة العرب أمام إسرئيل عندها شعر الكاتب، أن التوجــه للكبار كتابة وإبداعا ضرب من العبثية ومدعاة للخيبة ، وأن الأمل كل الأمل في البناء وإستعادة الوطن ، وتحقيق النصر وبلوغ أسمى الغايات والوصول إلى الغد المشــرق وبعث أمجاد الأمة إنما يتحقق على أيدي هؤلاء البراعم المتفتحة ، ولن يكون ذلك إلا بالإهتمام بهم والحفاظ عليهم ([6]).

إن الكتابة للأطفال ليست بالأمر الهين، ولابالعمل اليسير، والدليل على ذلــك أن الاهتمام بالطفولة والكتابة لها لم يجد اهتماما كبيرا مــن الدارســين و الشــعراء

والكتاب، لكن العيسى يعرف قيمة الشريحة، ودورها في مستقبل الأيام، وهــو أيضـــا الاحساس بالمسؤولية و ما يناط بالأديب من عبئ الإبلاغ و نشر الوعي، وبــث قــيم الحب والأخوة والكرامة والتحرر بين الناشئة والأجيال.

وهو اذ يكتب للأطفال، فإنه يكتب لشباب الأمة ورجالها فــي الغــد، ولأن الأطفال امتداد الشاعر وامتدادنا في هذه الأرض، ونباتها الطيب الذي ســتتدفق فــي عروقه دماء الحياة من جديد ولو بعد حين يقول ردا عن السؤال " لماذا تكتب للصغار ؟ الجواب :لأنهم فرح الحياة، ومجدها الحقيقي لأنهم المستقبل، لأنهم الشــباب الــذي سيملأ الساحة غدا أو بعد غد .

لأنهم امتدادي وأمتدادك في هذه الأرض، لأنهم النبات الــذي تبحــث عنــه أرضنا العربية لتعود إليها دورتها الدموية التي تعطلت ألف عام، وعروقها التي جفت ألف عام، قل: أكثر من ألف عام .

ألا يكفي هذا ليشدني إليكم يا أصدقائي الصغار، ويربطني بكم يوما بعد يوم ؟ " ([7])

ثالثـــــــــا :شعر الأطفال – الدلالة والأهمية –

إن من الأشياء التي تعلق بالذهن وترسخ في القلب وتظل جــذوتها تتلألــئ أنوارا في ركن ما من الوجدان، تلك الأناشيد التي تعلمناها بالبيت والمدرسة صغارا، وتلك الأشعار التي سمعناها عبر شاشة التلفاز أو عبر الأثير في الراديو والإذاعة .

تظل أصداء تلك الأشعار الجميلة اللغة، البســيطة العبــارات، ذات الإيقــاع الموسيقي الشجي، المتنوعة الموضوعات بتنوع و تشعب الحياة نفسها لحم أسرتنا تلك الأشعار أو الأغاني، وعاشت ردحا من العمر وسرت بأنغامها كالدم في عروقنا تمدنا بأسباب البقاء وعناصر الخلود وصور المجد والوفاء..

فشعر الطفل استطاع من خلاله الشاعر العربي تضمين موضوعات الحيــاة الكثيرة، وقدم من قالبه جوانب وجودية غزيرة من تاريخية ودينيه وواقعية و إنســانية وفكريـــــــة....

وتعد الأسرة والمدرسة النواة الأولى التي يتلقى فيها الطفل تكوينــه النفســي والأخلاقي وتتشكل فيها ملامح شخصيته، لذلك تعد " التربية هي الوســيلة الأساســية التي تكون شخصية الطفل، إذ عن طريقها يستطيع الطفل أن يتمثــل قــيم مجتمعــه

ويحافظ عليها، ولذا كانت الأسرة والمدرسة المؤسستين التربويتين الأوليين في تطبيع الطفل وتنشئته، فإن المربين آباء كانوا أم معلمين، لهم دور أساسي وتحضير في اكتساب الطفل قيما أساسية وأصيلة تجعله يتشبث بدينه الإسلامي الحنيف وبلغته العربية وبماضيه التاريخي، الذي يستمد منه العبرة والفائدة للحفاظ على هويته وخصوصيته الثقافية ([8]).

وبذلك استطاع الشاعر توجيه الناشئة إلى القيم الأصيلة للمجتمع والمعاني الإنسانية النبيلة بأسلوب جميل وفي نغمة حلوة

ووفق بعض الشعراء في نقل تجربتهم الوجودية ومعرفتهم الأدبية والفكرية وأذواقهم الفنية، وجعل الطفل يشاركهم أحاسيسهم ويحفظ أشعارهم ويتغنى بها رفقة أصحابه في البيت والمدرسة و الروضة والشارع.

ويعد الشاعر سليمان العيسى من شعراء الأطفال القلائل الذين عايشت أشعارهم وجدان وأحاسيس الطفولة ووجدت لدى فئات منهم الصدى الطيب وحسن الإستجابة والرضا والقبول.

وبودي قبل الحديث عن الموضوعات الشعرية عند عيسى، تحديد مصطلح الشعر "هذه الكلمة التي تستمد جذورها اللغوية من فعل الشعور"شعر – يشعر" فهو شاعر يشعر، كما نعبر عن ذلك البعد النفسي الذي يرتبط أصلا بالشعور والإحساس بما تعج به النفس البشرية من حالات معينة "(9)

مع الأخذ بعين الاعتبار أن بين الشعر وبين النثر بون شاسع وفرق واضح فإن كان النثر يخضع للعقل والأفكار فإن الشعرفي أصله جمال وانفعال " وتحوي كلمة شعر في معناها جوهر هذا الفن الجميل ففيها إحساس وشعور ووجدان... وإذ كان النثر تفكيرا فإن الشعر انفعال وهو يثير فينا بفضل خصائص صياغته إحساسات جمالية من لون فريد " (10)

والجدير بالملاحظة أن الكتابة للطفل ليست نفسها الكتابة لغيره من شرائح المجتمع (من الشباب والشيوخ وغيرهم) إذ تتطلب الكتابة لهذه الشريحة العريضة والهامة من المجتمع مخاطبتهم بحسب سنهم، وانتقاء اللغة السهلة القريبة من أعمارهم، وكذلك اختيار الموضوعات الوثيقة الصلة بحياتهم في البيت والمدرسة، كوصف

المدرسة أو المعلم والمعلمة أو حب الوالدين وحب الوطن.." ويدور الشعر التعليمي للأطفال حول النظافة والصلاة وحب الوطن وأنماط السلوك الخلقي، كما تدخل فيه الأقاصيص الشعرية التي تعرف بالأمثال" كما يدخل في هذا المجال الأناشيد المدرسية التي يغنيها للأطفال في المدرسة بصورة جماعية سواء في الفصول أم في الحفلات المدرسية، وهي تؤثر في الأطفال وتنمي تلاؤمهم الاجتماعي، ويبقى أثر ذلك في ذاكرتهم ووجدانهم بعد تجاوزهم عهد الطفولة والشباب " ([11]).

فالكتابة للطفل ومنها شعر الأطفال عليه أن ينزل من خلاله الشاعر بمستواه الفني واللغوي والفكري إلي مستويات الطفولة البسيطة الساذجة فيراعي أذهانهم الطرية وميولا تهم الفطرية وأحاسيسهم الندية التي لم تتغور عوالم الكبار أو تتدور دوران الأهواء والطبائع في الليل والنهار.

فآفة شعر للأطفال كما يرى الشاعر أحمد" زرزور" في مخاطبة الطفل من فوق منصت وعلى لسان خطيب، لا مخاطبته بلسانه ومراعاة شعوره واهتمامه" وقليل من الشعراء هم الذين فطنوا إلى ضرورة الكتابة للطفل من خلال عالمه وبمفاهيمه، فبثوا في كتاباتهم ما يثيره و يحفزه ويدهشه، ويتطلب منه رد فعل عملي، عن طريق الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، التي تشغله وتلهب خياله، وهي إن لم تفلح في الوصول إلى إدراكه كما يريد لها الشاعر، فإنها تحفزه، وتكون له وقودا ليتمها ويعيد إبداعها من جديد في عملية تلق سليمة كاملة" (12) .

والشاعر سليمان العيسى يقدم الشعر الذي يقدمه للأطفال تحت مسمى "المعادلة الشعرية الجميلة"، وهي معادلة تجمع في طياتها بين ركنين أساسين لا يمكن إهمالهما أو الاستغناء عنهما في الكتابة الشعرية الموجهة للطفل وهم: (السهولة والصعوبة) و يوضح الشاعر فكرته بالقول: "أعني الشعر السهل الصعب، القريب البعيد، في وقت واحد سهل..لأن الصغار يغنونه و يحفظونه في الحال، وصعب..لأن بعض معانيه وصوره تظل غامضة، بعيدة عن مداركهم بعض الشيء " ([13]).

ومع ذلك فإن الشاعر يكتب للصغار، ويحاول جهده أن ينقل إليهم همومه وأحلامه، ويضع بين أيديهم خلاصة تجربته الفنية والقومية والإنسانية حتى يكبروا ويشبوا على تلك المعاني السامية والقيم النبيلة التي تولد فيهم معاني الرجولة وتربي فيهم ملامح البطولة، يقول العيسى:"أني لا أكتب للصغار لأسليهم، ربما كانت أية لعبة

أو كرة صغيرة أجدى وأنفع في هذا المجال إني أنقل إليكم تجربتي القومية،تجربتي الإنسانية.. تجربتي الفنية...أنقل إليكم همومي وأحلامي....يا أعزائي الصغار، وعندما تكبرون قليلا سترون أني لم أخدعكم، لم أصنع وقتكم الناضر الثمين بشيء تافه .

إنكم أغلى علي، وأعز عندي من ذلك..إنكم جديرون بأن تحملوا الأمانة العظيمة منذ الآن..أمانة عودة الأمة العربية العظيمة المنكوبة الممزقة ، عودتها إلى موكب الإنسانية ..لتساهم في الإبداع والعطاء مرة أخرى"([14])

رابعا:الموضوعات الشعرية:

تتابين الموضوعات الشعرية وتتنوع عند الشاعر، تباين الحياة نفسها وتشعبها، من موضوعات تربوية تعليمية إلى وطنية ولقومية إلى موضوعات تمس الطبيعة وجمالها وكذا موضوعات اجتماعية وترفيهية..

1-الموضوعات التربوية التعليمية:

للتربية والتعليم دورهما الكبير في تربية الطفل على الفضائل الكريمة والقيم الرفيعة وتنشئته تنشأة صالحة تجعل منه رجل الغد، وأمل الأمة في التعبير" ونحن نرى أن الطفل العربي المسلم يجمل به أن يضع الإيمان على رأس القيم كلها ،لأنه بإيمانه بالله يبلغ مراميه ويحقق مبتغاه.والذي يسهل عليه أن يكفر بالله، يهون عليه أن يكفر بكل القيم الأخرى"(15)

إن دور الأسرة وخاصة (الأم والأب) يكون يغرس شجرة الإيمان بالله والاستمساك بالقيم والاعتزاز بميراث وتاريخ أمته وحضارته، فالطفل كما جاء في الأثر: "يولد الطفل على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.." والتعلق بالله ودينه يعلمه محبة وطنه وأمته والإنسانية جمعاء.

من هنا يحرص الآباء على وضع أناشيد دينية للناشئة تربي فيهم وفي الإيمان والأخوة والمحبة والرأفة.

وفي نشيد دعاء الطفل للعيسى، تتجلى قيم الوطنية والإنسانية، ومحبة الأهل والأصدقاء والمعلمين والوطن !

لتحفظ السماء بلادنا الخضراء

عزيـــزة على المــــدى	مرفوعة اللــــواء
لتحفـــــــظ السمـــاء	أهلـــي وإخوتـــي
وموطني الصغيـــــر	بيتـــي وأســـرتـــي
لتحفـــــظ السمــــاء	رفاقـــي الصغـــار
في أي بقعــــــــــة	كانـــــوا وأي دار
لتحفــــظ السمــــاء	معلمــــي الكريــــم
هو الذي يضيء لـــــي	طريقـــــي القويـــــم(16)

ولعل أقدر مخلوق على القيام بهذه المهمات الجليلة والأعباء الثقيلة، أقصــد: تربية الأبناء وتنشئتهم تنشأة سليمة وإعدادهم لأعباء الغد ورســالة المســتقبل (الأم)، مدرسة الطفل الأولى وحاضنته ومرضعته سقاء الخير والرحمة، وهي موئل المحبــة ودوحة العطاء، لذلك جاء النشيد يهتف بالأم نغما أزليا وضوء سرمديا:

مـــامـــا مـــامـــا	يا أنغامــــا
تمــــلأ قلبــــي	بندي الحب
أنت نشيـــــــدي	عيدك عيدي
بسمـــــة أمــــي	سر وجودي
أنـــا عصفــــور	مك الــــدار
قبلـــة مـــــامـــا	ضوء نهاري
أهـــــــو مـــامـــا	أفدي مــاما (17)

والملاحظ على هذه المقطوعة الشعرية سهولة الألفاظ ورقة العبارات التــي جنح إليها صاحبها وانتقاء الوزن الخفيف، كما جانب الشاعر التقريرية فــي أجــزاء منها، معتمدا على صور من التشابيه كقوله :"يا أنغاما، أنا عصفور ضوء نهاري..)

وإن كانت الأم هي أول من يفتح الصبي عينيه عليها. فإن الأب هــو رمــز الكفاح وعنوان التحدي، والكد في سبيل تحصيل رزق أبنائه ،وتوفير لوازم الحياة لهم، وتحقيق مطالبهم الضرورية الحياتية، وهذا حتى يصيروا رجال الغد القــادرين علـــى بناء وطنهم والدفاع عنه أمام أي هجمات أو نكبات، ونلاحظ في المقطوعة الشــعرية

التالية ربط الشاعر موضوع الأب بموضوع الوطن الصغير والوطن العربي الكبير :

بابـــا بابـــا يومـــك طـــابا
دمـــت ربيعا دمت شبـــــابا
لي ولأجـــل الوطن الغالـــي
يعمل بابــــا دون مـــــلال
بابـــا يتعـــب حتى نكبـــــــر
نبني نحـــــن الوطن الأكبـــر
وطني الأكبـــر وطني العربي
ضاء وحـــرر عبـــر الحقـــب
لم يستسلـــــــم للمغتصـــــب
بابا صـــــــورتـــك المحبوبـــــــــة
في قلبي أبـــــدا مكتوبـــــــــــة
رمز كفاح صوت صوت عروبــــــــــة ([18])

إن الشاعر إذ يتخير البحور الخفيفة التي يسهل تلحينها، ومـــن ثـــم حفظهـــا وحسن تقبلها عند الصغار، فهذا من ضروريات شعر الطفل. غير أن الشاعر كما في المقطوعة السالفة كثيرا ما يبتعد عن قاموس الطفل ولغته الساذجة، إلى استخدام ألفاظ بعيدة عن عقل الصبي و فهمه البسيط كقوله :"دون ملال، الوطن الأكبر، ضاء ،عبر الحقب، يستسلم، للمغتصب ......

وهذه في الواقع من المآخذات التي وجهت للشاعر، كما وجهت لغيـــره مـــن جيل الرواد الذين كتبوا للأطفال ككامل وشوقي و الهراوي.

وقد رد العيسى عن هذه التهمة، بأن ما يوجد في ألفاظه مـــن تـــوعر وفـــي عباراته من صعوبة إنما يتعمده ويقصده قصدا "ربما تعمدت الرمز والصـــعوبة فـــي الألفاظ واو الغرابة في بعض الصور ،وبما كانت بعض العبارات فوق سن الطفل كل ذلك أتعمده وأقصده في كثير من الأناشيد لا يهاني بقـــدرة الطفولـــة علـــى الإلتقـــاط والإدراك النظرة "([19]) كما يشيد الشاعر بأواصر القرابة وصلات الأخوة بين الأطفال، ويحاول ترسيخ معاني الترابط الأسري و العائلي حتى يشيب الصبي على قيم المـــودة

والرحمة والمحبة بين جميع الأفراد.

وفي نشيد "أخي" يبدو جمال الأخوة وصفاء المشاعر التي تملأ البيت حبورا وتنفتح بها أبواب السماء سرورا:

لا أرى أجمل من لفظ أخي
يــزهر البيت إذا قلت أخي
نحن ضوء واحد في مقلتين
نحن لحن واحد في شفتيــن
كــل أبــواب السماء تنفتح
عنــدما نلهو معا أو نمرح (20)

ولا يقتصر الأمر على موضوعات الأسرة والعائلة، التي هي أول من يفــتح الصبي عينيه عليها، فهناك موضوعات أخرى تمت بصلة بقضايا التعليم ومشــكلات التعلم عند الصغار، فهاهو الشاعر يريد أن يعلم الطفل أبجدية لغته الجميلة، ويدربــه على النطق بحروفها الأولى، ويعود قلبه وعقله الصغير على تهجيتها وتذوق أصواتها وهو إذ ينقل له هذه المعرفة ،كأنما يجعلها نوتات موسيقية، تعزف في قيتارة جميلة :

ألــف بــاء تاء ثــاء
هيــا نقــرأ يا هيــفاء
ألـــــــف أبنـــي
بـــــاء بلـــــدي
بيدي بيدي أبني بلدي

تــــاء تعـــــــــدو
نحــــــوي رعــــد
قالت: مـــاذا يأتـــي بعـــــدي ؟
ثـــاء ثمـــــــــر
طاب الثمـــــر....(21)

و تعد المدرسة المنزل الأول الذي يعانق فيه الطفل سحر الكلمات وجمال العبارات وتحلق روحه كعصفور جميل في حقل الأبجدية وفضاء الحروف .

وللمعلم أو المعلمة دورهما الكبير في تعليم الناشئة و فتح عقولهم على الاكتشاف و المعرفة وحب اللغة الوطن يقول العيسى:

نشيد النور في شفتي
تعيش تعيش مدرستي
أحب معلمي الغالي
أحبك يا معلمتي
أرى علمي أرى وطني
أرى الدنيا بمدرستي
ويكبر يكبر العصفور
من سنة إلى سنة
واهتف باسم وحدتنا
عبير الحب بالغنى ([22])

2)الموضوعات الوطنية والقومية

للوطن أهمية بالغة، وحضور كبير في دواوين الشاعر، وهذا ليس بالغريب ولا بالمستهجن، فالشاعر ينتمي إلى ذلك الجيل الذي ذاق مرارة الإستعمار والقهر، كما عرف الأسر والسجن من أجل قضايا التحرر في وطنه وغيره من الأوطان العربية، وشهد انتصارات انتشى فؤاده لها، وعاين انكسارات أدمت روحه وآلمته...

والوطن ليس فقط تلك الرقعة التي نسكنها، فتظلنا سماؤه وتقلنا أرضه، ونـنعم بخيراته ونتمتع بهوائه ونسماته، لكنه يسكننا ونسكنه، ويجري حبه في كياننا كالدم الذي ينساب بين الشرايين.

ولعل الشاعر أراد أن يوصل مفهوم الوطن بصوره بسيطة يفهمها الصغار فتظل مطبوعة دوما في خيالهم وعقولهم يقـــــــــول:

وطنـــــي أشجـــار وظلال
وتـــــــرابي قمح وغـــلال
أتفـــيأ ظـــــــلك يا وطنـــي
أرض الأجـــــــــــداد
وطـــــــن الأمجــــــاد
يتسلـــــــــح بالعلـــــــم
لا يركــــع للظلـــــــــم
عـــاش الينبـــوع المنسكب
عاشق شمــــس لا تحتجـــب
عاش العرب عاش العـــــــرب (23)

والشاعر في الغالب لا يفصل بين حب وطنه وحبه للوطن العربي ككل، فالروح القومية تتجلى كثيرا في أناشيده الوطنية، فبلاد العرب من بغداد إلى تطوان، وأرض العرب مـــن أقصاها إلى أقصاها داره ومقره لا يلمس فرقا، ولا يجد إختلافا، مهما تباعدت الأوطـــان وتناءت البلدان فإن ما يجمع بينها من تاريخ واحد مصير واحد يجعلهـــا منزلـــه وســـكنه يقـــول:

داري داري أرض العـــــــرب
زار قطـــــــاري وطـــن العــــــرب
مـــن تطـــــوان إلى بغـــــــداد
ســــــار قطـــاري يـــــــــا أولاد
يحمـــل أطفـــالا وبشـــائـــــــــر
في أرجـــــــاء الوطن الســـاحـــــــر (24)

و قد تجلى اهتمام الشاعر بالأمة العربية ، وما تعانيه من ويلات وما تكابـــده مـــن أرزاء ونكبات، في تلك الأشعار التي شارك فيها الثوار كفاحهم وعانق فيها جبـــال الأوراس و وهران أيام الإستعمار.

وفي نشيد الطفل الجزائري بيدي اهتمامه بأبناء الجزائر الصغار، الذين سيتخطون العتمة وينشرون الصبح في ليل الجزائر يقـــــول العيسى:

منـــــذ دقت بابنا أم اللغات
منـــذ غنينا نشيد العاصفات
" قسما بالنازلات الماحقات "
" والدماء الزاكيات الطاهرات "
صار لي أهل و عنوان ودار
صار لي ديوان شعر عربي
صار لي مدرستي لي ملعبي
والحكايات التي في كتبي
عربي أتخطى العتمـــــــــة
أحمل الصبح رؤى مزدحمة
تنشر الماضي تغني الملحمة ([25])

وهذه فلسطين التي إحتلها الغزاة ووطأتها أقدام اليهود، فعاثوا فيها فســـادا، وأتـــوا على كل جميل فيها فقبحوه، وكل غال نهبوه، وكل حي كريم أحالوه خرابا ودنسوه.

فحتى الأرض غضبت لوجودهم عليها والسماء كلحت لقدومهم إليها، وأشجار الزيتون و الليمون لم تضحك أفياؤها منذ جاؤوا من بعيد محملين بأحقـــادهم وجبـــروتهم ..لكـــن الأرض ستلفظهم و النار ستحرقهم.

وفي نشيد "طفل من فلسطين" يعبر عن هذه المعاناة التي عايشها الصـــغار كمـــا الكبـــار فاكتووا بنارها واحترقوا بسعيرها يقول:

انـــا من صفـــــــد
ســـــرقو بلــــــــدي
بلدي المحتل فلسطين
لم يزهر فيه الليمون
لم تضحك فيه الأفياء
قد هبت ريح صفراء
جعلت من أرض الأزهار
مرعى للموت وللنار
غرباء جاؤوا بالبغض
من شتى أنحاء الأرض
جاؤوا بحراب المغتصب
واحتل غريب دار أبي
في ليل أسود شردت
عن بيتي الغالي أبعدت
الويل لمن سرقوا داري
النـــار تقـــــاوم بالنار
أنــــا من يافـــــــــا
أنــــا من صفـــــــد
وطني: سأحرره بيـــدي ([26])

ورغم أن الشاعر لم يدخر جهدا للكتابة للأطفال و الاهتمام بعالمهم البرئ، ومحاولـــة مداعبة إحساساتهم المرهفة بتلك الكلمات الحلوة المنغمة، وذاك الإيقاع الموسيقي الـــدافئ، وتلك الصور الشعرية المخلبة، مع ذلك فإن الشاعر كثيرا ما يوظف ألفاظا و معاني تبعـــد عن مستوى الأطفال الفكري و الوجداني ، كما في النشيد السابق نحو قولـــه ((الأفيـــاء- حراب- المغتصب-البغض..))

3–شعر الطبيعة :

يلتفت الشاعر كثيرا للطبيعة ،وتبرز مظاهر الطبيعة وأشكالها المتباينة في أشعاره الموجهة للصغار، فالأطفال أعلق ما يكونون بالطبيعة وجمالها وألوانها، كما يحبون الحيوانات وخاصة الأليفة منها ولذلك كثيرا ما يشبه الشاعر الطفل بالورد أو الزهر أو العصفور.

والواقع أن اطراد أشكال وصور الطبيعة في شعر الطفل يربي ذائقته الفنية، ويزيده رهافة حسن و دقة شعور.

وفي قصيدة " منى والعصافير " يتحلى ذلك الترابط بين الطفل والحيوانات الجميلة وبخاصة « العصفور» يقول:

تحب منى العصافيرا
تحت غناءها الساحر
نقول لكل عصفور
إلي إلي يا شاعر
وتملأ كفها حب
وتنثره على الدرب
فتلتقط المناقير
الصغار هدية الحب
وأصبحت العصافير تحب منى
وتنتظر المناقير مجيئ منى (27)

وفي قصيدة" الحقل الأخضر" ترتسم ملامح الطبيعة الوادعة بأشجارها الخضراء وظلالها الوارفة أين تأوي إليها الطيور مطمئنة و تسكن إليه الهررة بوداعة، و ترعى فيها الخراف بطلاقة ، يقول :

الحقل الأخضر ألحان
يتمشى فيه نيسان

تتزين بالطيـــــر الشجـــــرة
وتموء صغيرات الهـــــررة
والنسمة تســـــري في هفهافة
والشط يوزع أصدافــــــه
وخرافي تسرح في العشــب
وتحيى الثـــــور على الدرب
والحقـــــــل الأخضر ألحان
والحلـــو الطالع نيســــــــان (28).

أما قصيدة "الفصول الأربعة"، فتبدوا فيها ملامح الفصول والخصائص الجمالية لكـــل فصل، فهذا الربيع تكتسي فيه الطبيعة بساطا أخضرا وأزهارا شذية، أما الصـــيف فهـــو فصل تنظيم الرحلات وجمع الغلات، وفي الخريف تتناثر أوراق الأشجار، ويشتد هبـــوب الرياح وهطول الأمطار، وفي الشتاء تتجمد المياه، وتتحلق الأسرة حول الموقـــد لســـماع حكايات الجدات ويقول:

الربيــــــــــع:
للأمطار وللأزهار
وللظلل الخضراء
الصيــــــف :
للرحلات وللغلات
وللحقول المعطاء
الخريــــــف :
للأوراق المنتثرة
للغيمات المنهمرة
للريح الهوجاء
الشتـــــــاء:
يا نار السهرات
يا قصص الجدات

يجمـــــــد فيك المـــاء
لكل فصل طعمه الجميل
لكل فصل لونه الأصيل ([29])

4)الشعـــــــر الترفيهي:

عالم الأطفال هو عالم البراءة والمرح، عالم الحبور والفرح، لذلك يعشق الصـــبيان اللعب و الجري والمرح. وتتباين أشكال اللعب وتتنوع وسائل التسلية التي يسرون بها عن أنفسهم، فهناك القفز بالحبل، واللعب بالكرات، واللعب بالدمى بالنسبة للبنات، وكذلك اللعب مع الحيوانات الأليفة، واللعب بالأراجيح، هذه الأخيرة من الألعـــاب المحببـــة للصـــغار وتشعرهم بالمتعة و النشوة، لأنها تجعلهم يطيرون كالعصافير .

يقـــــول:

طيري بنا طيري مثل العصافير
يامركب الأحلام يابسمة النور
طيري إلى الوراء طيري إلى الأمام
أحلى من الأنسام بين الأزاهير
أرجوحتي طارت عصفورة طارت
ياحسنهـــــا دنيا فل منثور (30).

ويهوى الأطفال الحيوانات الأليفة، ويتعشقون اللعب معها والإقتراب منهـــا، ومحاولـــة تقليد حركاتها ومحاكاة أصواتها، وحتى تدليلها عند بعض الصغار

وفي قصيدة "رشا والبطة" نلمس تلك الوشائج وذاك التناغم بين الطفلة والبطة، يقول:

البطة تسبح في الماء
ورشا الحلـــــــوة
سبحــــــــت معها

ما أبدع ألحان الماء !
ورشـــــا الحلوة
ما أبدعهــــــــا ! (31).

ومن الألعاب المحببة إلى قلوب الذكور تحديدا، كرة القدم، والتي من خلالهـا يحـاولون محاكاة نجوم الملاعب العالمية ، وأبطال كرة القدم، وانجذابهم إلى هذا النوع من الألعاب يدل على أثرها على وجدانهم وعقولهم ،يقول الشاعر في قصيدة "الكرة" :

أقذفها نحوي يامصعب
أقذف هزي الكرة الحلوة
نحن غدا أبطال الملعب
نحن نجوم الكرة الحلوة
تعلو، تهبط، كالأنغـام
في أرجلنا كرة القـدم
تبعها مثل الأنسام
ما أروعها تهوى قدمي ! (32)

ومجمل القول أن شعر الأطفال من الفنون المحببة للصغار،التي تحتل مكانة متميـزة بين الفنون الأدبية المختلفة "والشعر أكثر قدرة على ثقل التجربة، ففيه الـنغم الصـوتي، والصور الفنية ،والنسيج اللفظي والبناء الفني، والشعر بذلك قادر على تحريك كل مظاهر النشاط الكامنة في روح الإنسان،وهو يجعل التلاميذ أكثر وعيا بوجودهم" (33)

وقد استطاع العيسى روفق غالبا في تحريك مشاعر الأطفال، ونقل تجربته الفنية والفكرية إلى عالمهم الصغير، فنشيد (عمي منصور النجار) مثلا فعل فعله الوجداني والجمالي في تلاميذة المدارس وأطفال الروضات .

كما يتسم شعره بالتلون والتنوع في الموضـوعات وثـراء الصـور الشـعرية وتنـاغم الإيقاعات.

وكان يهدف الشاعر في توجهه إلى هذه الشريحة من خلال الكتابة الإبداعية لهم (شعرا،مسرحا،حكايات، تمثيليات ..) إلى تربية الناشئة على الفضائل ،وحثهم على القيم النبيلة، ولفت أنظارهم منذ نعومة أظفارهم على الواقع واهتماماته وتنمية روح الإحساس الوطني والعربي فيهم، وتطوير الحسن الشعوري والجمال الفياض، وتوعية أبنائنا بمشكلات أمتنا حاضرا وأمجادها ماضيا، والأمل بمستقبلها بهذا الجيل الي يرسم البسمة على الشفاه ويمسح الدموع من المقل، ويعيد لراية الأمة عزتها ومجدها الأثيل.

وسليمان العيسى في قصائده ليس فقط شاعرا أو أديبا، ولكنه المربي والمؤرخ والمناضل والسياسي المحنك والمعلم الفاضل الذي يعرف متى وأين توضح الكلمات، ما الحيز الفني واللغوي الذي يستوعبها ؟

وبالرغم من انتقادات النقاد له، حول تعمده الصعوبة في لغته، واستعماله ألفاظا ليست باليسيرة على أذهان الصغار، فقد أكد تحقيقه بما يسمى بالمعادلة الشعرية الجميلة..."التي تطبع شعره و أسلوبه الفني، حتى يصل النشيد الى عقل وقلب الطفل فيهواه ويحفظه، وهي معادلة تتحقق بوجود العناصر التالية :

1- اللفظة الرشيقة الموحية، خفيفة الظل وبعيدة الهدف
2- الصورة الشعرية الجميلة التي تبقي على الدوام ومر الأيام
3- الفكرة النبيلة الخيرة، زاد الصبي وكنزه في الحياة
4- الوزن الموسيقي الخفيف الرشيق ([34])

ويكفي الشاعر سليمان العيسى فخرا أنه أبدع للصغار،وامتلأت دفاتر حياته ورودا أزهارا وأنغاما عذبة وألحان شذية داعب بها خيال وعقول الأطفال، فكان بحق شاعر الأطفال وحبيب الصغار.

الهـــــوامش:

1) سليمان العيسى – ديوان الأطفال – المقدمة – ط1 – دار الفكـر المعاصـر(– بيروت –) دار الفكر (– دمشق)– 1999– ص :9 –10– 11.
2) – سليمان العيسى – غنوا يـا أطفـال –ج7– ط1 – دار الآداب للصـغار – بيروت – 1978 – ص :18 – 19
3) – سليمان العيسى – ديوان الأطفال – ص :22 – 23– 24.
4) – سليمان العيسى– مقال بعنوان: أحلام شجرة التوت – مجلة العربي – ع 495 – الكويت – فبراير 2000 – ص :84
5) – مجموعة من الكتاب – مع سليمان العيسى – ط1 – دار طلاس– دمشـق – 1984 – ص :125.
6) – نفـــســـــه ص :84
7) – سليمان العيسى – غنوا يا أطفال – ج1 – ص:14 – 15.
8) محمد حيان حافظ – مقال :أدب الأطفال في التراث – مجلـة الأدب السـلامي (عدد خاص بأدب الطفل) –ع 40 – الرياض – 2004 ص: 70) .
9) حسين عبروس – أدب الطفل وفن الكتابة – دار مدني – الجزائـر – 2003 – ص: 49 .
10) أحمد نجيب – فن الكتابة للأطفال – دار الكاتب العربي للطباعـة والنشـر – مصر – 1968 – ص 80
11) عبد القدوس أبو صالح– مقال : نحو منهج إسلامي لأدب الطفل – مجلة الأدب الإسلامي – ع 40 –الرياض 2004 – ص : 8
12) – علياء دربك – مقال : أدب الطفل المسلم في مواجهة العولمة – مجلـة الأدب الإسلامي ص: 55 – 56
13) – سليمان العيسى – ديوان الأطفال – ص: 12 – 13
14) – نفـــســـــه – ص: 30 – 31
15) محمد مرتاض من قضايا أدب الأطفال – ديـوان المطبوعـات الجامعيـة – الجزائر – 1994 – ص :14
16) – سليمان العيسى ديوان الأطفال – ص: 702 – 703 – 704

17) – سليمان العيسى – غنوا يأطفال – ج1 – ص:25
18) – نفســــــه –ج1 ص :27.
19) – فوزي عيسى – أدب الأطفال – نشأة المعارف – الإسكندرية – 1998 – ص : 77 – 78 .
20) –سليمان العيسي – ديوان الأطفال – ص : 654 –655.
21) – نفسه – ص : 37 – 38
22) نفسه – ص : 72 – 73
23) سليمان العيسي – غنوا يالأطفال – ج2 ص : 27 – 28
24) نفسه – ج2 ص: 12
25) سليمان العيسي – ديوان الأطفال – ص : 308 –309–310
26) – نفسه – ص : 126–127–128
27) – نفسه – ص : 323 –324
28) – نفسه – ص : 389 – 390
29) – نفسه – ص : 622–623–624
30) – نفسه – ص : 399–400
31) سليمان العيسي – غنوا يا أطفال – ج5 –ص :6
32) سليمان العيسي – ديوان الأطفال ص : 715 – 716
33) حسن شحاتة – أدب الطفل العربي – ط3 – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – 2004– ص : 260 .
34) سليمان العيسي – الديوان الأطفال– المقدمة – ص : 13